أدعية الرسول صلى الله عليه وسلم
مقاربة تداولية

د. محمد مشرف يوسف خضر

أستاذ مساعد بآداب طنطا

ملخص:

الدعاء النبوي نص لغوي فذ، أنشأه النبي، صلى الله عليه وسلم، رحمة بأمته، سواء في مقام الدعوة ليعلمها أدب الدعاء، أم في مقام التضرع إلى الله يستجلب لها به كل خير وسعادة؛ إذ يتوجه به مرسِلا كريما إلى ربه القدير سبحانه وتعالى، برسالة محددة القصد، يعلن فيها ضعفه وعجزه وفقره وفاقته، إلى ربه في قوته وقدرته وجبروته وسلطانه، ويحملها حاجاته التي يفتقر إليها لإصلاح دينه ودنياه.

ولعل في اختيار المقاربة التداولية، التي يتسع المجال فيها لاختصاصات متعددة من علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلوم البلاغة، والنقد الأدبي، وتحليل الخطاب وغيرها؛ ما يناسب النظر في أدعية الرسول، صلى الله عليه وسلم، بكل حمولاتها الدينية والعاطفية؛ فهي علم يهتم بدراسة الظواهر اللغوية والثقافية والجمالية التي تتجلى في الاستعمال اللغوي، فلديها القدرة على التعامل مع تلك النصوص بكفاءة تشجع على الاستعانة بها.

Prayers of the Prophet Muhammad, peace be upon him
A pragmatic approach

Abstract:

Prophetic supplications are distinguished linguistic texts established by the Prophet, peace be upon him, out of mercy for his nation. They serve as a means to teach the etiquette of supplication and to beseech Allah, seeking all goodness and happiness. Through these supplications, the Prophet humbly turns to his Almighty Lord, conveying a specific message in which he acknowledges his weakness, incapacity, poverty, and neediness, while highlighting the strength, power, authority, and sovereignty of his Lord. He presents his needs, which are necessary for the rectification of his religion and worldly affairs.

The choice of a discourse analysis approach, which allows for various disciplines such as psychology, sociology, rhetoric, literary criticism, discourse analysis, and others, seems suitable for studying the supplications of the Prophet, peace be upon him, with all their religious and emotional implications. This approach focuses on studying the linguistic, cultural, and aesthetic phenomena manifested in linguistic usage. It has the ability to effectively engage with these texts, encouraging their utilization.

أدعية الرسول صلى الله عليه وسلم
مقاربة تداولية

مقدمة

الدعاء النبوي نص لغوي فذ ومتميز، له قانونه، وله شروطه، وله صفاته التي تجعله نقيا صافيا، لا علاقة له بغيره من النصوص؛ فهو نص أول في بابه، لا يستلهم إلا القرآن، ولا يستعين إلا به؛ وهو يأتي تاليا له في مكانة عليا، فصاحة وبلاغة وبيانا، لفصاحة صاحبه، صلى الله عليه وسلم، ورقي بلاغته، وحسن بيانه، وهو إلى ذلك نص مترع بالمحبة والحنو والإشفاق، والحرص منه، صلى الله عليه وسلم، على البشرية كلها.

وهذا النص في تميزه وفرادته يحتاج إلى منهج يظهر ما فيه من عبقرية، سواء في معناه، أو في مبناه، أو في أثره. ولعل التداولية أن تكون هي أقرب ما يمكن الاستعانة في هذا الصدد؛ فهي تهتم بكل ما يتعلق بعملية التواصل اللغوي، وقوانين هذا التواصل، وشروط تحققها في الخطاب ليكتب له النجاح، بدءا من تحديد شكل العلاقة بين المتكلم والمتلقي، ومرورا بكيفية استخدام اللغة في سياق خاص، والأشكال اللسانية المتولدة عن هذا الاستخدام؛ ثم استعانة بالسياق ووظيفته المرجعية، والقناة ووظيفتها الإيصالية، واللغة ووظيفتها التفسيرية؛ وكل ما يتحقق به التواصل الكامل بين المتكلم والمتلقي.

أهمية البحث

ولعل أهمية هذا البحث تكمن في الرغبة لفت الانتباه إلى فن أدبي مهم (فن الدعاء النبوي)، فن له قيمته، وله خصوصيته؛ لكنه مع ذلك يأتي غالبا ضمن التناول العام لحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وحقه أن يكون جنسا أدبيا تفرد له البحوث والدراسات الخاصة بموضوعه.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى فتح الباب لمحاولة التأسيس لمشروع يتصل بالبلاغة النبوية، ويستقل بجانب يختص ببلاغة الدعاء النبوي. وكذلك يحاول الكشف عن دور الدعاء في التغيير المعنوي والمادي للفرد وللجماعة، سبيلا لإصلاح الأمة.

مشكلة البحث

فهل، بعد كل ما مضى، يمثل الدعاء النبوي قضية تحتاج للانفراد ببحث وحدها؟ وهل لها من القوة والأثر ما يجعل منها قضية من قضايا الفكر البلاغي؟ وكيف يمكن أن نعالج هذه القضية، لنخرج بنتائج مهمة؟

حدود البحث

أما حدود البحث فهي في الزمان تنحصر نصا في العصر النبوي، لكنها تمتد أثرا إلى بقية العصور التالية، وبحثنا في النص والأثر. وأما في الموضوع فهي محصورة في أدعية الرسول، صلى الله عليه وسلم فحسب دون بقية أحاديثه الشريفة.

الصعوبات التي تواجه البحث

ربما تتمثل الصعوبة الكبرى في أنه بحث بكر ندر سابقه، فهو داخل في باب التنظير ابتداء والتقعيد على غير مثال سابق، مما يفرض عليه صعوبة البدايات.

منهجية البحث

في بحثنا نتخذ التداولية وسيلة منهجية لقراءة الأدعية النبوية، وتحليل ظواهرها اللغوية، وذلك بوصفها نظرية عامة للنشاط الإنساني، تهتم بكل أشكال التفاعل الاجتماعي والخطابي، وتدرس كافة العناصر اللغوية والخطابية المتعلقة بالكلام والتلفظ، وتهتم بالعملية التواصلية بكافة جوانبها النفسية والاجتماعية والثقافية.

الفرضيات الأساسية في البحث

يتأسس البحث، وتتابع محاوره الأساسية من أجل اختبار أربع فرضيات محددة افترضناها ونحاول التدليل عليها، ولعل أهم فرضيات هذا البحث: أن اللغة لا تتوقف عند مجرد نقل المعنى فحسب، بل إن أمرها ليتعدى إلى أبعد من هذا بكثير؛ حين تضطلع بدور الفعل والإنجاز والتحول على المستوى المادي لا المعنوي فحسب. وفرضية ثانية تتمثل في تصورنا حول استخدامات الضمائر ودورها في تحقيق القرب والحضور، ومن ثم في استجابة الدعاء وقرب تحققه، وربما تتصل بها فرضية ثالثة حول أنماط الدعاء المختلفة، ودورها كذلك في قرب تحقق الاستجابة، في نمط عن نمط آخر. وفرضية أخيرة تدور حول تميز الخطاب في الدعاء النبوي عن كل ما عداه من خطابات سردية.

تقسيم البحث

وجاء البحث مقسما على عشرة محاور، ومدخل عرضنا فيه للتداولية وأهميتها ومناسبتها لموضوع البحث. وخاتمة تضمنت أهم نتائج البحث، وتوصياته. وفي المحور الأول (اختيار التداولية) عرضنا لعلاقة التداولية بفكرنا القديم، ومناسبتها لبحثنا وقدرتها على تجلية مظاهر العبقرية في الدعاء النبوي، وكان علينا أن نعرض لنصوص الدعاء وأنها بمعناها ولفظها لصاحبها، صلى الله عليه وسلم، لنتأكد من سلامة مادة البحث في المحور الثاني (الدعاء ولفظ الحديث النبوي)؛ ثم نحدد معنى (الدعاء في اللغة والاصطلاح- المحور الثالث) على وجه دقيق، لنسير على بينة من أمرنا في درس الدعاء ودوره الخطير في الإنجاز والتغيير والتأثير (المحور الرابع: الدعاء حدثا كلاميا)؛ وجاء المحور الخامس، حول (مقام العبودية والافتقار إلى الله) تمهيدا طبيعيا للمحور السادس حول (العلاقة بين الداعي "منتج النص" والمدعو "متلقيه") العلاقة تعد أساسا لنجاح عملية الاتصال. وتطلب هذا أن يكون المحور السابع حول (بلاغة المرسل، وبلاغة الرسالة) الطرف الحاضر في عملية التواصل، والدعاء الوسيط بينهما، ليكون المحور الثامن حول (عبقرية الدعاء النبوي) في البنية والدلالة، مع استعراض شيء من هذه العبقرية في المحور التاسع (من إشاريات الدعاء النبوي) وكذلك في المحور العاشر حول (أنماط الدعاء).

مدخل إلى التداولية

النصوص اللغوية كائنات حية، ذات طبيعة ديناميكية ومراوغة، ولعل التداولية هي المنهج الذي يملك القدرة على التعامل معها؛ وهي اتجاه لساني حديث، جاء فيما يشبه رد فعل حادا على طغيان المناهج الشكلية التي بلغت ذروتها مع البنيوية، التي أحالت النص إلى علامات، وبنيات مغلقة تحكمها قوانين

داخلية مستقلة عن كل ما هو خارجها؛ فجاءت التداولية بطبيعتها التواصلية وتوجهها الوظيفي مهتمة بالبحث في الاستعمال اللغوي لتعيد ما تم استبعاده من قبل؛ تعيد إحياء المؤلف، وتهتم بالمتلقي، ولا تلغي مكان الخطاب وزمانه، وتأثير كل ذلك في النص، الذي يحكمه سياق يوجه قصده ويوضح معناه، ووظيفة يتغياها، ورسالة يحملها؛ جاءت علما يهتم بدراسة الظواهر اللغوية والثقافية والجمالية التي تتجلى في الاستعمال اللغوي؛ وهذا يجعلها علما بينيا تتعدد فيه التخصصات وتتشارك فيه اللسانيات مع علوم أخرى تحكم أمر التواصل مثل علم النفس، وعلم الاجتماع وعلوم البلاغة والنقد الأدبي، وتحليل الخطاب وغيرها، وهذا ما جعلنا نراها الأقدر على التعامل مع النصوص، وسبر أغوارها، واستكشاف كوامنها.

وفي حالة التواصل، التي تهتم التداولية بدراسة اللغة فيها، لا يكمن المعنى في الكلمات وحدها، بل يتوزع بين الكلمات والمتكلم والسامع، في عملية مشتركة تبدأ من انفعالية المرسل، الذي يحول أفكاره ومشاعره ووجداناته إلى كلمات، تتمثل في رسالة لغوية، جمالية، تخضع لقواعد متواضع عليها، إلى متلق يعيد تفكيكها ويفك رموزها ويفسرها، ليحصل على البلاغ المقصود منها، ومن ثم يكون انفعاله بها؛ فالمعنى ناتج عن عملية التداول اللغوي بين المتكلم والسامع ضمن سياق تواصلي خاص.

وإذا كان للنص اللغوي معنى أول يحمله ظاهر التركيب، فهناك معنى آخر بلاغي، يكمن وراء هذا الظاهر، كما عند الجرجاني في رؤيته حول المعنى، ومعنى المعنى، يقول: " تعني بالمعنى المفهومَ من ظاهرِ اللفظِ والذي تَصِلُ إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى، أن تَعْقِل من اللفظِ معنًى، ثم يُفضي بكَ ذلكَ المعنى إلى معنى آخرَ"[1] وهو الذي نصل إليه عن طريق السياق الذي تنتقل فيه الدلالة من المعنى الحرفي الأول إلى المعنى الضمني الآخر، وهو المراد من صوغ النص على نحو بذاته لا يصلح له غيره.

ومعنى المعنى هو الذي يشغل التداولية، التي تهتم بدراسة العلاقة بين العلامة اللغوية ومستخدميها، كما يرى موريس Charles Morris ويكمل تصوره فرانسيس جاك Francis Jacques الذي يضيف أن التداولية تتناول " اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا"[2]، فهي تتجاوز الدارسة البنيوية للغة إلى دراستها في سياق استعمالها، ومراعاة كل ما يحيط بها من أحوال وما تخضع له من مقاصد مباشرة أو ضمنية يقصدها المتكلم ويعرفها المتلقي من البنية الخاصة التي يأتي النص عليها، بما يتضمن من عناصر ليس أقلها السياق.

1- اختيار التداولية

وحين نتحدث عن التداولية علما غربيا حديثا، فنحن نختصر طريقا فحسب، وإلا فإن الفكر التداولي هو الفكر الشائع في تراثنا العربي القديم، القائم أصلا، في كافة تطبيقاته، على دراسة اللغة في أثناء الاستعمال؛ حيث مارس البلاغيون والنحاة والنقاد والفلاسفة المسلمون، المنهج التداولي ووظفوه بوعي في تحليل الظواهر اللغوية وعلاقاتها المتنوعة، مبرزين فيها اهتمامهم بالمرسل والمتلقي والرسالة، والتأثير والتأثر والقصد ونوايا المتكلم، والفائدة من الكلام، والإفهام، مما يمكن أن نعده وحدة متكاملة في دراسة اللغة، تقدم لنا دراسة تداولية شاملة، بالمفهوم الحديث؛ حيث إن الإنتاج اللغوي القديم يؤول في مجموع نحوه وبلاغته وأصوله وتفسيره إلى المبادئ الوظيفية، ربطا بين المقام والمقال، وبين خصائص الجمل الصورية وخصائصها التداولية.[3]

---

[1] أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة المدني، القاهرة، ط3، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ص: 263

[2] انظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986م، ص: 12

[3] انظر: محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، مجلد 28، عدد 3، مارس، 2000م، ص: 30- 31؛ خليفة بوجادي، التفكير اللغوي التداولي عند العرب: مصادره

لهذا لم يكن عجيبا ما نراه الآن من انتشار واسع وسريع للفكر التداولي في الثقافة العربية، حيث كان من الطبيعي أن يجد فيه النقاد العرب المحدثون روح تراثهم المجيد وأصوله، فكان الأمر وكأنها بضاعتنا ردت إلينا، فكثرت الترجمات حولها من اللغات الأخرى، وظهرت، كذلك، محاولات للربط والموازنة بين حديثها في الثقافة الغربية، وقديمنا في التراث العربي.

ولعل اختيار هذه المقاربة التداولية مما يناسب النظر في أدعية الرسول، صلى الله عليه وسلم، أكثر من غيره؛ ففي الدعاء استخدام خاص للغة، تواصلا بين داع ومدعو، في سياق خاص. الأمر الذي اعتنت به التداولية. وفي هذا الجانب اللغوي التواصلي، تتجلى عبقرية الدعاء النبوي، الذي يتوجه فيه النبي، صلى الله عليه وسلم، مرسِلا كريما إلى ربه القدير سبحانه وتعالى- في سياق خاص، حالي ومقالي- برسالة محددة القصد، وإن كان معناها قابلا للاتساع بلا حدود، بخاصة ونحن مع جوامع كلمه، صلى الله عليه وسلم.

2- الدعاء ولفظ الحديث النبوي

ولولا اليقين أن لفظ الدعاء هو الذي تلقيناه عن النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بنصه وفصه، لما كان للدراسة معنى، بل لانتقضت من أساسها؛ فمن المعروف أن هناك من أجاز رواية الحديث النبوي بالمعنى، وإن بشروط مشددة، وعلى اعتبار أن ذلك ليس أصلا وإنما رخصة تقدر بقدرها،[4] ومنهم من جعل الجواز في غير حديث النبي، صلى الله عليه وسلم؛ يقول مالك بن أنس: "ما كانَ مِنْ حَديثِ رسُول الله صَلى الله عليه وسَلم، فلا تَعْدُ اللَّفظَ، ومَا كانَ عَن غَيره فأصَبتَ المعنى، فلا بأس"[5] لكن الدعاء من كل ذلك أمر وحده.

أما الأصل فقد ذهب كثير من المحدِّثين والفُقهاء والأُصوليين إلى مَنع رواية الحديث النبوي الشريف بالمعنى مطلقا؛ قال القُرطبي: " وهو الصَّحيحُ من مذهب مالك، حتى إن بعض مَن ذهب لهذا شدَّد فيه أكثرَ التَّشديد، فلم يُجز تقديم كلمة على كلمة، وحرف على آخر، ولا إبدال حرف بآخر، ولا زيادة حرف ولا حذفه، فضلا عن أكثر، ولا تخفيف ثقيل، ولا تثقيل خفيف، ولا رفع منصوب، ولا نصب مجرور أو مرفوع، ولو لم يتغيَّر المعنى في ذلك كله، بل اقتصر بعضُهم على اللَّفظ ولو خالَف اللُّغةَ الفصيحة"[6]

و" كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا سَمِعَ الْحَدِيثَ لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، وَلَمْ يُجَاوِزْهُ وَلَمْ يَقْصُرْ عَنْهُ"[7]

ومشهور في هذا الصدد حديث البراء بن عازب في البخاري: " إِذَا أَتَيتَ مَضجَعَكَ، فَتَوَضَّأ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضطَجِع علَى شِقِّكَ الأيمَنِ، ثُمَّ قُل: اللَّهُمَّ أسلَمتُ وجهِي إِلَيكَ، وفَوَّضتُ أمرِي إِلَيكَ، وأَلجَأتُ ظَهرِي إِلَيكَ، رَغبَةً ورَهبَةً إِلَيكَ، لا مَلجَأَ ولَا مَنجَا مِنكَ إِلَّا إِلَيكَ، اللَّهُمَّ آمَنتُ بِكِتَابِكَ الذي أَنزَلتَ، وبِنَبِيِّكَ الذي أَرسَلتَ، فإن مُتَّ مِن لَيلَتِكَ، فأنتَ علَى الفِطرَةِ، واجعَلهُنَّ آخِرَ ما تَتَكَلَّمُ بِهِ. قالَ: فَرَدَّدتُهَا علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمَّا بَلَغتُ: اللَّهُمَّ آمَنتُ بِكِتَابِكَ الذي أنزَلتَ، قُلتُ: ورَسولِكَ، قالَ: لَا، ونَبِيِّكَ الذي أرسَلتَ" فهو، صلى الله عليه وسلم، من صفته عند البراء، أنه هو النبي، وكذلك هو الرسول، لكن

ومجالاته، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف ٢، الجزائر، المجلد ٩، العدد ١٦، أكتوبر ٢٠١٠م. ص٣١-٣٩؛ وأحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط2، 2010م، ص: 35

[4] انظر: عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ)، معرفة أنواع علم الحديث، تحقيق: عبد اللطيف الهميم، وماهر ياسين الفحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م، ص: 322

[5] أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)، الكفاية في علم الرواية، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، تحقيق: أبي عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني، ص: 188

[6] شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، فتح المغيث شرح ألفية الحديث، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1403هـ (2/ 243)

[7] الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، ص: 171

إصراره، صلى الله عليه وسلم، على لفظة (ونبيّك) يأتي تنبيها على أن هذا الذكر داخل في جملة العبادات؛ والذكر من الدعاء، والدعاء من العبادة، وعلى الداعي بهذا الدعاء أن يتقيد بألفاظه كما قالها صلى الله عليه وسلم.

وعن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "نَضَّرَ اللهُ امرأً سمِعَ منَّا شيئًا فبلَّغَهُ كما سمِعَهُ، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أوْعَى من سامِعٍ"[8] وعن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إنَّ كَذِبًا عليَّ ليس ككذبٍ على أحدٍ، فمنْ كذب عليَّ مُتعمِّدًا، فلْيتبوَّأْ مقعدَه من النَّارِ"[9]

وحتى الذين أجازوا رواية الحديث بالمعنى اشترطوا أن لا يكون اللفظ متعبداً به: كألفاظ الأذكار ونحوها من الأدعية المأثورة، وجوامع الكلم، والكتب المصنفة.[10]

وبهذا يخرج نص الدعاء من هذا الخلاف، فهو مخ العبادة، ولا خلاف في أنه قد جاءنا بلفظه وبمعناه.

3- الدعاء في اللغة والاصطلاح

الدعاء خطاب لغوي وظيفي إبلاغي، يجري في سياق خاص وله مقاصده الخاصة.

والدعاء: الطلب، وهو: توجه العبد إلى ربه فيما يحتاجه لإصلاح دينه ودنياه. وهو مصدر من قولك: دعوتُ الشيء أدعوه دعاءً، وهو أن تُميل الشيءَ إليك بصوت وكلام يكون منك.[11] والجمع أدعية. والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوة.

الدعاء: مناجاة يتوجه بها العبد في ضعفه وعجزه وفقره وفاقته، إلى ربه في قوته وقدرته وجبروته وسلطانه؛ مبتهلا إليه بالسؤال، رغبة فيما عنده من الخير؛ وتضرعا إليه في تحقيق مطلوب، والنجاة من مرهوب. يقول الخطابي، رحمه الله، في معنى الدعاء: هو " استدعاء العبد ربه- عز وجل- العناية واستمداده إياه المعونة. وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرّؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذّلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله، عز وجل، وإضافة الجود، والكرم إليه؛ ولذلك قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: الدعاء هو العبادة"[12]

فالضعيف في ضعفه يحتاج أن يتصل بقوي ليقوى؛ ولا شيء ثم يحجب الضعيف عما يريد، ولا مانع يمنعه من مناجاة ربه القهار الذي بيده ملكوت كل شيء، في أي وقت وفي كل مكان.

ويفصل الزجاج، رحمه الله، أمر الدعاء وأنواعه؛ يقول: " ومعنى الدعاءِ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ على ثلاثة أضرب: فضرب منها توحيده والثناءُ عليه؛ كقولك: يا الله لا إله إلا أنت، وكقولك: رَبَّنَا لَك الحَمْدُ، إذا قلته

---

[8] صحيح سنن ابن ماجه، رقم: 190

[9] الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري (ت ١٤٢٠هـ) صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ط3، 1408هـ، 1988م، رقم: 2142

[10] انظر: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، مكتبة الرياض الحديثة، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف (2/ 102)

[11] انظر: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، ط2، 1420هـ، 1999م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (2/ 279)

[12] أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت ٣٨٨هـ)، شأن الدعاء، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، ط1، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص: 4

فقد دعوتَه بقولك ربنا، ثم أتيت بالثناءِ والتوحيد. ومثله (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) أي يستكبرون عن توحيدي والثناءِ عليَّ، فهذا ضرب من الدعاءِ.

وضرب ثان هو مسألة الله العفو والرحمة، وما يقرب منه كقولك اللهم اغفر لنا.

وضرب ثالث هو مسألته من الدنيا كقولك: اللهم ارزقني مالًا وولداً وما أشبه ذلك.

وإنما سمي هذا أجمعُ دعاء لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياءِ بقوله يا الله، ويا رب، ويَا حَي. فكذلك سمي دعاءُ."[13]

فالدعاء يكون دعاء عبادة: وهي حالة خاصة لخصوصية المدعو سبحانه يُكتفى فيها بالثناء عليه؛ وعلمه بالحال يغني عن السؤال؛ وهو توحيد لله تعالى، يذكر فيه الداعي صفات المدعو التي يلوذ بها من ضعفه، وفيه "إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له، وما شرعت العبادات إلا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه"[14] وهو بذلك يشمل جميع القربات الظاهرة والباطنة.

ويكون دعاء مسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي من كشف ضر، أو جلب نفع، وينقسم إلى قسمين، أحدهما سؤال ما يصلح الدين، وتنصلح به الآخرة، والآخر سؤال ما يصلح الدنيا؛ ولعله تأويل لدعائه، صلى الله عليه وسلم: " اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لي دِينِي الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ الَّتي فِيهَا معاشِي، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتي الَّتي فِيهَا معادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لي في كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لي مِن كُلِّ شَرٍّ "[15]

وبعد مراجعة للأمر ينبه ابن تيمية إلى " أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة"[16] فليس ينفك أحدهما عن الآخر.

4- الدعاء حدثا كلاميا

ولا شك أن مفهوم الاستعمال اللغوي، الذي تلح عليه التداولية، ليس مجرد إنشاء تراكيب لغوية تحمل معناها بالقوة، بل يعنى أننا نوظف اللغة في دور فاعل وخطير؛ ننجز بها أعمالا، ونغير بها أحوالا، ونحدث بها تأثيرا.[17] فاللغة، من منظور التداولية، ليست مجرد أداة للتواصل، فحسب، أو رموزا للتعبير عن الفكر، فقط، كما تتصورها التوليدية التحويلية، وإنما هي ميدان تُنجز فيه الأفعال؛ هي أداة لتغيير العالم، وصنع أحداثه، والتأثير فيه.[18] اللغة تمثل سلطة لها القدرة على الفعل والتغيير.

والداعي في دعائه يغير العالم بالفعل، سواء عالمه الخاص أو العالم الذي يتصل به ويدور من حوله؛ فكل دعاء مستجاب، ما لم يعجل العبد، أو يشك، أو يجرب، أو يدعو بقلب ساه غافل، وما لم يكن

---

[13] إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، (1/ 255)

[14] ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت، 1379ه (11/ 95)

[15] صحيح مسلم، رقم: 2720

[16] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، الفتاوى الكبرى، دار المعرفة، بيروت، قدم له: حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م (15/ 11)

[17] انظر: نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: 15؛ وميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، 1986 م، ص: 61؛ وفان دايك، علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، 2001م، ص: 18

[18] انظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 11

فيه إثم أو قطيعة رحم؛[19] فإن الرب سبحانه وتعالى " لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء"[20] فبمجرد إنشاء التركيب اللغوي الخاص بالدعاء، يبدأ التغيير؛ والداعي يريد من وراء دعائه إنجازات كبرى، وتغييرات مهمة، في النفس إصلاحا وتهذيبا، وفي الكون ضبطا وتعديلا، وفي الحياة جبرا وتوفيقا. وكل ذلك يأتي ترتيبا لصلاح الآخرة وما فيها.

وهذا هو ما تبحثه نظرية الأفعال الكلامية، التي جاء بها أوستن John Austin، وطورها تلميذه سيرل John Searle، في محاولة لإنجاز فلسفة دلالية تهتم بالمضامين التواصلية ومقاصدها، وتختلف عما عرف عند علماء الدلالة من البنيويين، حيث كان أوستن يبحث عن القيمة التداولية في الاستخدام اللغوي، مهتما بمفهوم القصدية في فهم كلام المتكلم، وهي تتجلى في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والقصد العام من الخطاب، بمعنى أن الفعل الكلامي يعني الحركة، أو الفعل الاجتماعي الذي ينجزه الإنسان بالكلام. فالفعل الكلامي، بذلك، يتجلى في ثلاثة أشكال: فعل القول وأداته اللغة، والفعل المتضمن في القول، ويحمل رغبة المتكلم في إنجاز فعل معين، والفعل التأثيري الناتج عن القول، ويتمثل في الآثار المترتبة على فعل القول؛ فأن نقول كلاما، فالأمر لا يتوقف عند حد القول لفظا، بل يتعدى إلى معني أننا ننجز فعلا.[21]

وهذه الرغبة في الإنجاز تظهر بجلاء في أدعية المسألة، حيث الطلب صريح، والرغبة في إنجاز الفعل موجودة وظاهرة من فعل القول: " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي"[22] فالداعي يطلب أن يمحو الله ذنوبه، ويسترها، وهو حريص على حصول هذه المغفرة لذنوبه مطلقا؛ فحصولها دليل على صفح الله وعفوه درجة أولى يقترب فيها العبد من ربه. ثم يأتي الطلب التالي ارحمني: درجة ثانية من درجات الترقي في العلاقة مع الله تبارك وتعالى؛ فمع المغفرة الرحمة؛ في الأولى الأمن من كل شر، وفي الأخرى الفوز بكل خير في الدُّنيا والآخرة. واهدني: هداية علم، وهداية إرشاد وتوفيق لما فيه الخير؛ وعافني من كل شر؛ وارزقني: ما ينفعني وييسر عيشي بحياة طيبة في الدنيا والآخرة. ويقول، صلى الله عليه وسلم: " فإن هَؤُلَاءِ تَجْمَعُ لك دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ"[23]

هنا يتعدى الكلام المعنى الكائن في التركيب اللغوي لأن يصير فعلا، وإنجازا متحققا عبر الرغبة في التغيير الكامنة عند المتكلم، والمتضمنة في دعائه؛ ومن خلال ما سبق من ضمان تحقق الاستجابة، يكون التحول الكبير في حياة الداعي بهذا الدعاء، مستعينا بربه القدير.

وفي دعائه، صلى الله عليه وسلم " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي، وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ"[24]

---

[19] قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:" ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذاً نكثر، قال: الله أكثر" رواه أحمد وصححه الحاكم

[20] محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: زكريا علي يوسف، ص: 47

[21] انظر: جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م، ص: 7، 115، 131؛ وآن روبول، وجاك موشلر، التداولية اليوم، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت، 2003م، ص: 31- 32؛ ومسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص: 10

[22] صحيح مسلم، الحديث رقم: 2697

[23] السابق

[24] الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1357ه، رقم: 3235

هذا نص دعائه، صلى الله عليه وسلم، فعل القول الذي لا يتوقف عند ظاهره اللغوي، وإنما تتحرك فيه رجاءات ورغبات وطلبات، تتحفز للخروج والتحول من القول إلى الفعل والإنجاز المتحقق؛ فهو، صلى الله عليه وسلم، يسأل الله العون على فعل الخيرات، من كل ما يحبه اللَّه تعالى ويُقرّب إليه من قول أو عمل. وترك المنكرات، من كل ما يبغضه الله من قول أو عمل. ويسأله حب المساكين، وفيه صدق المحبة في الله، ثم يسأله المغفرة والرحمة وفيهما الخير كله، في الدنيا والآخرة، ويشترط رجاءً: إذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون؛ يطلب النجاة من الفتن والسلامة من آثارها، بالقبض قبلها "وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْفِتْنَةِ"[25]

وكل هذا تصحبه الرغبة في التحقق منهاجا للحياة التي يرغب فيها واقعا يحياه. ثم يسأل الله المحبة، محبته هو لله وأن يحبه الله، وأن يحب من يحبه الله، وأن يحبه من يحبه الله؛ ويقول ابن رجب: " فإنْ كانتْ محبةُ الله ثابتةً في قلبِ العبدِ نشأتْ عنهَا حركاتُ الجوارح فكانتْ بحسبِ ما يحبُّه اللَّهُ ويرتضِيهِ، فأحبَّ ما يحبُّه اللَّهُ عز وجلَّ من الأعمالِ والأقوالِ كُلِّها، ففعلَ حينئذٍ الخيراتِ كُلَّها وتركَ المنكراتِ كلَّها، وأحبَّ من يحبُّه الله من خلقه"[26]

فالعبد في دعائه ينتج خطابا مشبعا بما يتردد في صدره من مشاعر يختلط فيها الحزن بالفرح، واليأس بالأمل، والكرب بالفرج، والهم بالانشراح، والوحشة بالأنس، والحسرة بالسرور، والندم بالرضا.. خطاب يتوجه به إلى الرب الكريم الرحيم الرحمن، وباكتماله يوقن الداعي بالإجابة وبدء التحقق؛ فيتصرف انطلاقا من هذا اليقين؛ وتأتي حركته، كما قال ابن رجب، بحسب ما يحبه الله ويرتضيه.

وحتى في أدعية العبادة، في حال الثناء، تأتي تلك الرغبة في الإنجاز كذلك متضمنة في لفظ الدعاء دون تصريح؛ حياءً من الله أن يكون الطلب مباشرا؛ ففي الثناء من إعلان العبودية والمحبة والشكر والحمد له سبحانه وتعالى، ما يجعل الطلب الصريح أمرا مستهجنا لا يتناسب مع كل ذلك؛ فيأتي اللفظ في شكله الخاص، وصفا لعظمة الرب، وتقريرا لتلك العظمة، بما يحمل من صفات هي منتهى الكمال والجلال والجمال؛ وشكرا له على عطاياه الكثيرة وفضله العظيم ونعمه التي لا تحصى؛ وتعبيرا عن الرضى والامتنان والمحبة له جل جلاله الخالق الملك المدبر، مع إظهار التذلّل والخضوع والانكسار له والحاجة إليه. وكل هذا يتضمن معنى: أن نعمك علينا كثيرة، وإحسانك إلينا مما يستحق الذكر والشكر والثناء؛ فأنا أثني عليك، لذلك، بما أنت أهله؛ فاحفظها علينا، وبارك لنا فيها؛ ويقول المناوي في هذا المعنى: " الدعاء عبارة عن ذكر الله، وأن تطلب منه الحاجة، والحمد يشملهما، فإن الحامد لله إنما يحمده على نعمه، والحمد على النعم طلب المزيد"[27]

والحمد، كذلك، يستجلب رضا الله تبارك وتعالى؛ فعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " إنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا"[28] واليقين أن في رضا الله البركة والزيادة في العطاء؛ وهو ما يجده الداعي في نفسه وهو يناجي ربه " رَبَّنَا لك الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلْءُ ما شِئْتَ من شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ ما قال الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لك عَبْدٌ، اللهم لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ"[29] فلك يا رب كل صفات الكمال محبة وتعظيما، من عبدك العاجز عن أداء حق حمدك؛ فهو يستعين

---

[25] مسند الإمام أحمد، رقم: 23674

[26] زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، جمع وترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ط1، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م (2/ 212)

[27] المناوي، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، 1422هـ، 2001م، (2/ 34)

[28] صحيح مسلم، رقم: 2734

[29] صحيح مسلم، رقم: 477

بك ليثني عليك ويحمدك بما أنت أهله؛ وأنت أهل لكل ثناء وحمد وتمجيد وتعظيم؛ وهذا الثناء أصدق شيء يقوله العبد، وكلنا لك عبد، وأنت مالك كل شيء بيدك وحدك المنع والعطاء (هنا تتجسد رغبة العبد في عطاء الرب دون طلب صريح لها) لا شريك لك، ولا ينفع صاحب الجاه والسلطان عندك جاهه وسلطانه، إنما هي التقوى والعمل الصالح.

فالثناء فوق كونه تقريرا، لعظمة الرب المحمود لجميع صفاته وأحواله، فهو دعاء كذلك؛ لاستلزامه الطلب، وقد قال، صلى الله عليه وسلم: " أفضل الدعاء الحمد الله؛ فسمى الحمد الله دعاء، وهو ثناء محض، لأن الحمد متضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه"[30]

وهذا هو الضرب الأول من أضرب الدعاء عند الزجاج " قولك: يا الله لا إله إلا أنت، وكقولك: رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، إذا قلته فقد دعوتَه بقولك ربنا، ثم أتيت بالثناءِ والتوحيد"[31]

5- مقام العبودية والافتقار إلى الله

العبودية شعور بالخضوع لله، والاستكانة لعظمته، والذل لسلطانه، والافتقار الكامل إليه- يهيمن على كيان الإنسان ومشاعره تجاه ربه سبحانه وتعالى؛ يقوده إلى تعظيمه ومهابته، والالتجاء الدائم إليه بالاستغفار والدعاء والرجاء، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرتضيه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة؛ وقيمة العبادة إنما تكمن في القدر الذي تنطوي عليه من معنى العبودية، من حيث إن العبادة هي الوظائف البدنية التي كلف الله بها عباده، من صلاة وصيام وحج، وغيرها من العبادات التي شرعت وسيلة لتحقيق العبودية.[32]

وهي أشرف المقامات التي يمكن أن يصل إليها الإنسان في علاقته بربه؛ مقام التسليم لله، ومحبته، والشوق إليه، والخوف منه، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والانقياد المطلق له سبحانه تعالى، ومراقبة أوامره وإتيانها على النحو الذي يرضيه، واجتناب نواهيه، وحسن الاعتماد عليه، والاطمئنان بما عنده؛ فيها تكون سائر حركاته وسكناته لله، عز وجل؛ تصير محاب الله هي محاب النفس وأقصى رغباتها؛ وبذلك يصير عبدا حقيقيا لمولاه، فيسعد في الدنيا، وتعلو درجته في الآخرة.

وإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هو عبد الله، حقا، وهو يعرف معنى هذه العبودية، ويقوم بحقها؛ عبدا شكورا؛[33] فكان في أعلى مقاماتها، وقد اختارها، صلى الله عليه وسلم، على مقام الملك، حين خير بينهما " أفملكًا نبيًّا أجعلَك أو عبدًا رسولًا" فكانت هي اختياره: " بَلْ عَبْدًا رَسُولاً"[34]

واختارها الله تعالى لنبيه، صلى الله عليه وسلم، في أشرف المواقف وأعلاها؛ في الإسراء، حيث بلغ مبلغا لم يبلغه أحد من الخلق، حتى جبريل، عليه السلام ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾؛ وفي مقام الدعوة إليه، أشرف المقامات ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾؛ وفي مقام إنزال القرآن عليه،

---

[30] مجموع الفتاوى (15/ 19)

[31] الزجاج، معاني القرآن وإعرابه (1/ 255)

[32] انظر: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1421هـ، 2000م، تحقيق: ابن عثيمين (1/ 380)؛ ومحمد سعيد رمضان البوطي: شرح الحكم العطائية، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2003م، (3/ 142)؛ ومجموع الفتاوى (10/ 149)

[33] البخاري، محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1407ه، 1987م، رقم: 4836 "قَامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فقِيلَ له: غَفَرَ اللَّهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، قالَ: أفلا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا"

[34] مسند أحمد، الحديث رقم: 7160

وليس فوق ذلك من مقام ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾؛ وكذلك في مقام التحدي والتعجيز ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾

وفي الدعاء تتجلى العبودية في صورتها الأسمى، مع انكسار الداعي وإظهار ضعفه وذلته، وكبير حاجته إلى معونة خالقه، وفي كل هذا يتجلى إخلاص العبد وإقراره بوحدانية الرب، وقدرته؛ يبدو هذا في سيد الاستغفار، مع إعلان العبودية المطلقة، للربوبية المطلقة، وإعلان التمسك بالعهد الأول ووعد الفطرة، وإعلان الحاجة للعون على درء مغبات الشرور التي كانت من العبد، الذي يوقن بربوبية الرب ورعايته ومنّه عليه بأنواع النعم، معترفا بذنبه، مقرا بالذي كان من خطيئته، طالبا غفرانه من الذي لا يملك الغفران سواه: " اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا علَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي؛ فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ"[35]

والافتقار إلى الله لبّ العبادة وجوهرها، أن يكون المرء دائما في حاجة إليه تعالى، أن يكون به دائما، ويكون دائما له، يقول ابن القيم: " فحقيقة الفقر: أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء؛ بحيث تكون كلك لله، وإذا كنت لنفسك فثمَّ ملك واستغناء مناف للفقر... فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه"[36]

والافتقار حال يحض العبد على مداومة الطاعة وملازمة التقوى، وينبت في قلبه الخشية والخشوع لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء والإقرار بالنعمة من الله عليه، والإقرار بتقصيره هو، فيكون الندم فالعزم على مفارقة ما كان من تفريط والعودة إلى ما يحبه الله، مستعينا به وهو الفقير إليه. والقلب، فيما يقول ابن تيمية " فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلية، فالقلب لا يصلح، ولا يفلح ولا يلتذ ولا يُسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح، والسرور، واللذة، والنعمة، والسكون، والطمأنينة، وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له"[37] فإذا أقبل القلب على الله مخلصا له عبادة وخضوعا ومحبة؛ وافتقارا إليه واستعانة به وتوكلا عليه؛ هنالك تكون السعادة كلها، ويكون النعيم كله.

6- العلاقة بين الداعي (منتج النص) والمدعو (متلقيه)

في عملية التواصل بين المتكلم والمستمع لا بد من وجود علاقة رابطة بينهما،[38] هذه العلاقة تعد أساسا لنجاح عملية الاتصال، بل لعلها هي التي تسمح بالتواصل ابتداء، ومن ثم يجري البناء عليها واستثمارها ليكون للكلام تأثيره المرجو.

وعلاقة العبودية الحقيقية، هي العلاقة الرابطة، في حالة الدعاء، بين العبد وبين الرب؛ بين عبد لا يملك شيئا سوى إيمانه برب يوقن جزما أنه يملك كل شيء، وأنه قادر على كل شيء؛ وهي علاقة تجعل المرسل الداعي يكيف خطابه معنى، وكما، وملاءمة، ووضوحا؛ ليحصل على رضا متلقي الخطاب، المدعو، سبحانه وتعالى، ومن ثم يكون اليقين في حصول الإجابة وتحققها.

---

[35] صحيح البخاري، رقم: 6306

[36] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1393هـ، 1973م، تحقيق: محمد حامد الفقي (2/ 440)

[37] الفتاوى الكبرى، (2/ 386)

[38] انظر: محمود نحلة... آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 34؛ والتداولية في البحث اللغوي والنقدي تحرير: بشرى البستاني، مؤسسة السياب، لندن، ط 1، (2/ 25)

فالعبد يقدم الثناء على الرب بما هو أهله من صفات العظمة والكمال والجلال، ويذكر فضل ربه عليه وعظيم كرمه معه، ويشكر نعمه التي أنعم بها عليه، ويعترف بذله له وفقره إليه؛ استجلابا لرضا الرب. وذلك مدخل طيب لإجابة الدعاء ووسيلة من وسائل القبول. فكان استحبابه، صلى الله عليه وسلم، أن يبدأ الدعاء بالثناء على الله تبارك وتعالى بما هو أهله، بحثا عن هذه العلاقة، التي تفتح للدعاء باب الرجاء والقبول؛ فعن ابن عباس، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان إذا قام من الليل، يتهجد، قال: " اللَّهُمَّ لكَ الحَمْدُ أنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ، ولَكَ الحَمْدُ لكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَن فِيهِنَّ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ، ولَكَ الحَمْدُ أنْتَ الحَقُّ ووَعْدُكَ الحَقُّ، ولِقَاؤُكَ حَقٌّ، وقَوْلُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبِيُّونَ حَقٌّ، ومُحَمَّدٌ، صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لكَ أسْلَمْتُ، وبِكَ آمَنْتُ، وعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإلَيْكَ أنَبْتُ، وبِكَ خَاصَمْتُ، وإلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنْتُ، أنْتَ المُقَدِّمُ، وأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إلَهَ إلَّا أنْتَ- أوْ: لا إلَهَ غَيْرُكَ- قالَ سُفْيَانُ: وزَادَ عبدُ الكَرِيمِ أبو أُمَيَّةَ: ولَا حَوْلَ ولَا قُوَّةَ إلَّا باللَّهِ"[39]

ويقول الرازي في الحث على تقديم الثناء بين يدي الدعاء، والتعليل له، وأنه من الواجبات: " فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى أنه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقاً في معرفة الله ومحبته ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة إلهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشيء الذي هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين."[40]

ثم بعد الثناء يأتي الاستغفار، طلبا لمحو أي أثر للذنوب يمكن أن يعكر صفو هذه العلاقة التي يصبو إليها بينه وبين ربه؛ يقول ابن القيم: " وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتا من أوقات الإجابة... وصادف خشوعا في القلب، وانكسارا بين يدي الرب، وذلالة وتضرعا ورقة... ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه... ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار... فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدا"[41]

ومثل ذلك كثير في نصوص الدعاء الواردة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ومنها سيد الاستغفار؛ الذي يبدأ العبد فيه بالثناء على ربه، ثم يثنّي بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله المغفرة.

وقد يأتي الثناء في ختام الدعاء، فيقوم بالدور نفسه " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْباً سَلِيماً، وَلِسَاناً صَادِقاً، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"[42] فبعد أن سأل الله مطالب الدين، والدنيا، والآخرة، ثباتا على الهدى، وتوفيقا، وشكرا على النعمة، وإصلاحا للقلب، والفوز بكل خير والسلامة من كل شر، وغفرانا لكل ذنب- بعد هذا يثني عليه: إنك أنت علام الغيوب؛ فأنت تعلم من حالي ما فيه الخير لي، فبعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق كن لي وأصلح حالي بما تراه خيرا لي.

---

[39] أخرجه البخاري (1120) واللفظ له، ومسلم (769)

[40] التفسير الكبير (24/ 127)

[41] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: محمد بن علي بن ريحان، 2016م، ص: 5

[42] الطبراني، المعجم الكبير، رقم: 7135، وصححه الألباني.

7- بلاغة المرسل، وبلاغة الرسالة

تهتم التداولية اهتماما كبيرا بطرفي عملية التواصل: المرسل، والمتلقي؛ فلا يمكن فهم الخطاب فهما صحيحا دون معرفة صاحبه، ومتلقيه، والوقوف على طبيعة العلاقة بينهما؛ ومتلقي الدعاء هنا هو الله تبارك وتعالى، السميع العليم القريب المجيب. ومرسله هو النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، عبد الله ورسوله، الذي لا ينطق عن الهوى، وقال فيه القرآن: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فالله تعالى، فيما يقول السعدي، لم يزل يوحي إليه ويعلمه، ويكمّله "حتى ارتقى مقاما من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها"[43]

كان، صلى الله عليه وسلم، راقي الأداء، بليغ التعبير عما يريد، وكانت البلاغة عنده طبعا لا افتعال فيه ولا تكلف؛ فكان، صلى الله عليه وسلم " أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاما، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقا، حتى إن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب ويسبي الأرواح... وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد، ليس بهذّ مسرع لا يحفظ، ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدي، قالت عائشة: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه"[44]

ففي إيجاز وتكثيف وإبانة ووضوح وإقناع وإفهام وتلقائية وضبط إلهي يأتي كلامه، صلى الله عليه وسلم، وقد أعطي جوامعه، ويقول المناوي: " أعطيت جوامع الكلم، أي ملكة أقتدر بها على إيجاز اللفظ مع سعة المعنى بنظم لطيف، لا تعقيد فيه يعثر الفكر في طلبه، ولا التواء يحار الذهن في فهمه"[45] ويقول الرافعي: " ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد وبراعة القصد"[46]

فكلامه صلى الله عليه وسلم، هو الكلام الفصل البين الجامع الواضح الذي " جل عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف... وهجر الغريب الوحشي... فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشُدَّ بالتأييد، يُسِّر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام... لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب... ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يَهمز ولا يَلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر؛ ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه، صلى الله عليه وسلم"[47]

فنحن نسمع منه السجع فنجد له حلاوة وجمالا " اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِن عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ،

---

[43] تفسير السعدي (1/ 201)

[44] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط14، 1407هـ، 1986م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، (1/ 182)

[45] عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ، ص: 561

[46] مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (ت ١٣٥٦هـ)، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م، ص: 194

[47] عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، دار صعب- بيروت، تحقيق: فوزي عطوي (1/ 221)

وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا"[48] مع أنه، صلى الله عليه وسلم، كان يكره السجع في الدعاء، لكنه يأتي في كثير من الأدعية والمخاطبات " في غاية الانسجام المشعر بأنه وقع بغير قصد"[49]

ثم إنه كان يكفي أنه، صلى الله عليه وسلم، كان من قريش، أفصح العرب، واسترضع في بني سعد؛ قال له أبو بكر، رضي الله عنه: " مَا رَأَيْتُ أَفْصَحَ مِنْكَ يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ: وَمَا يَمْنَعنِي، وَأَنَا مِنْ قُرَيْشٍ، وَأُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ؟"[50] ولبني سعد شهرتها في الرضاعة، والفصاحة.

ولا شك أن عملية التواصل في حال الدعاء تكون في أرقى صورها، وأشدها حساسية؛ فالداعي شديد التعلق بالمدعو، الذي يملك وحده تحقيق مطلوبه، فتمتزج لديه مشاعر: المحبة، والخوف، والرجاء. فالدعاء عنده، صلى الله عليه وسلم، يأتي في المرتبة العليا من مراتب الكلام؛ فهو يتوجه به إلى خالقه، جل وعلا، فهو يحبره تحبيرا، ويوجزه إيجازا مركزا بينا؛ فيأتي متحليا بصفات خاصة، وكأنه نمط من الأداء وحده، فهو كلام خاص، بل هو من خاص الخاص. نقول هذا ونحن نعلم أن الدعاء كلام من كلامه، صلى الله عليه وسلم، نقل إلينا بلفظه ومعناه، دون تغيير في شيء فيه، لما سقناه من قبل، وكذلك التماسا لبركة الكلام النبوي في قرب تحقق المراد.

والدعاء عملية تواصل تجري بين العبد وربه، عبر رسالة موجهة إليه من العبد، خطاب يعبر له فيه عن قصد ما، ويبغي من ورائه تحقيق هدف ما؛ وكل هذا في إطار تحكمه اتفاقات حالية ومقالية متقررة بين العبد وبين الرب؛ بين عبد مفتقر إلى ربه، وإلى عونه، وبين رب حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صِفراً؛[51] رب يطلب من عبده أن يتواصل معه بالدعاء، عبادة حقيقية يقبل فيها عليه وحده، معرضا عن كل ما سواه، يرجوه وحده، ويخشاه وحده، ويسأله وهو الملك وحده؛ ليستجيب له، فعنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " الدُّعاءُ هوَ العبادةُ. ثمَّ قالَ: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ"[52] وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه: " لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ الدُّعَاءِ"[53]

وللرسالة في الدعاء النبوي شكل يقارب الاضطراد، يكاد يمثل قانونا ثابتا تلتزم به، ويلتزم به المرسل، صلى الله عليه وسلم، هو شكل الإيجاز المعجز الذي يحمل المعنى كله في أوجز لفظ فصيح مبين، فإذا أحاط بالمعنى الذي يريده، كان في ذلك الكفاية مهما كان عدد الكلمات المستخدمة في الدعاء، وهي تأتي مفصلة واضحة بينة مفهومة بليغة فصيحة كلامها عذب، وأداؤها للمعنى سريع في منطق طيب، وكلام فصل لا هزل فيه.

وفي دعائه، صلى الله عليه وسلم، كان فيما تقول عائشة، رضي الله عنها: " يستحِبُّ الجوامعَ منَ الدُّعاءِ ويدَعُ ما سِوى ذلِكَ"[54] وعن أنس بن مالك، رضي الله تعالى عنه، قال: كان أكثر دعاء النبي، صلى

---

[48] صحيح مسلم، رقم: 2722

[49] فتح الباري (7/ 407)، وانظر: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1409هـ، تحقيق: كمال يوسف الحوت (6/ 21)

[50] أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الروض الأنف، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1421هـ، 2000م (1/ 287)

[51] صحيح الترمذي، رقم: 3556؛ يقول ملا قاري في مرقاة المفاتيح: " الإجابة على أنواع، منها: تحصيل عين المطلوب في الوقت المطلوب. ومنها: وجوده في وقت آخر لحكمة اقتضت تأخيره. ومنها: دفع شر بدله، أو إعطاء خير آخر خير من مطلوبه. ومنها: ادخاره ليوم يكون أحوج إلى ثوابه" القاري، علي بن سلطان محمد، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م، (5/ 117)

[52] أخرجه أبوداود، رقم: 1479؛ والترمذي: 2969

[53] أخرجه الترمذي، رقم: 3370؛ وابن ماجة، رقم: 3829

[54] أخرجه أبوداود، رقم: 1482؛ وأحمد في مسنده، رقم: 25151

الله عليه وسلم: " اللهم ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخِرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النارِ"[55] وفي رواية عن ثابت، أنهم قالوا لأنس: ادع الله لنا؛ فقال: " اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. قَالُوا: زِدْنَا. فَأَعَادَهَا؛ قَالُوا: زِدْنَا. فَأَعَادَهَا؛ فَقَالُوا: زِدْنَا. فَقَالَ: مَا تُرِيدُونَ؟ سَأَلْتُ لَكُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ"[56] وعن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: " يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ"[57]

8- عبقرية الدعاء النبوي

ولعل عبقرية الدعاء النبوي متقررة من النظرة الأولى لأي من أدعيته، صلى الله عليه وسلم، فحين نقرأ دعاءه: " رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا أَوَّاهاً مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي"[58] لا نملك إلا أن نراه بعين الإعجاب والاندهاش من هذه الصيغة الجامعة المانعة المستقصية الشاملة العامة التي تجلب الراحة الكاملة للنفس، والاطمئنان التام للقلب.

تذللا ومحبة يأتي هذا الدعاء المعجب في كل شيء؛ المعجب في لفظه، والمعجب في معناه، والمعجب في إيقاعه وموسيقاه، والمعجب في تقسيمه الذي جاء عليه... رب: 1- أعني. 2-لا تعن علي. 3-انصرني. 4-لا تنصر علي. 5-امكر لي. 6-لا تمكر علي. 7-اهدني. 8-يسر الهدى لي. 9-انصرني على من بغى علي. 10-اجعلني: لك شكارا. 11-لك ذكارا. 12-لك رهابا. 13-لك مطواعا. 14-إليك مخبتا. 15-أواها. 16-منيبا. 17-تقبل توبتي. 18-اغسل حوبتي. 19-أجب دعوتي. 20-ثبت حجتي. 20-اهد قلبي. 21-سدد لساني. 22-اسلل سخيمة قلبي.

في اثنين وعشرين طلبا من العبد لربه، يأتي هذا الدعاء الجامع لكل خير، والمانع من كل شر، في استقصاء عجيب لأسباب الصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة؛ طلبا للعون والتوفيق للإحسان على الوجه الذي يرضيه، سبحانه تعالى، من أمور الدنيا والآخرة، فأعني اللهم على كل من يمنعني عن الخير، ولا تجعل له علي من سبيل، نصرا منك وتوفيقا، وسلمني من مكر الماكرين، واجعل مكرهم عليهم، ودلني على الطريق القويم، وسهل لي سلوكه وهيئ لي أسباب الخير فيه. وأعني على شكرك كثيرا، فبه تقيد النعم، وعلى ذكرك كثيرا، في كل وقت وعلى كل حال، واجعلني هيابا منك ورعا وتقوى، ممتثلا أمرك، مجتنبا نهيك، خاشعا لجلالك، كثير التضرع لك والبكاء بين يديك، كثير التوبة إليك من الذنوب والخطايا، وتقبل مني توبتي، وطهرني من إثمي؛ ومن ثم أسألك ربي أن تستجيب لي دعائي، وأن تثبت حجتي في الدنيا على أعدائك، وفي الآخرة عند سؤال الملكين. واهد قلبي، إليك، وإلى صراطك المستقيم، واجعل لساني تبعا لقلبي في هدايتك فلا يلهج إلا بذكرك ولا ينطق إلا بالحق ولا يقول إلا الصدق والصواب، وأسألك يا ربي أن تجعل قلبي نقيا مطهرا من كل حقد وغل وغش وحسد لأحد من عبادك أو لخلق من خلقك.

دعاء متميز بميزات ينفرد بها، يبدأ بإظهار علاقة العبد بربه، وأنه يعيش به، وبتوفيقه وتيسيره وتدبيره وقدرته؛ فيأتي الدعاء: رب أعني... وانصرني... وامكر لي... ويأتي مع الطلب مكمل آخر لا يطلبه إلا ذو دلال على ربه، يعلم أن له عنده مكانة تؤهله لأن يدعو به: لا تعن علي... لا تنصر علي... لا تمكر علي؛ فأن يطلب المرء العون من الله والنصر والتدبير، فهذا طبيعي في علاقة معتادة بين عبد وربه، لكن حين تتعدى هذه العلاقة حدود المعتاد إلى آفاق الشعور بالأنس والطمأنينة فإن العبد يزيد في

---

[55] البخاري: 6389
[56] صحيح ابن حبان، رقم: 938
[57] صحيح الترمذي، رقم: 3522
[58] أخرجه أبو داود، رقم: 1510، والترمذي، رقم: 3551

دعائه: أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي...

ثم يتحول الأنس إلى وجد يمنح الكلمات روحا جديدة، يتحول معها الدعاء إلى ترجيع محب عابد، مع ظهور إيقاع جديد في البنية اللغوية، قريب من إيقاع المتدارك: " رب اجعلني لك شكارا، لك ذكارا، لك رهابا، لك مطواعا، إليك مخبتا أواها منيبا" تطرب له النفس، وتسمو توقا إلى تلك المقامات العليا في العلاقة بين العبد وربه؛ ثم من هذا الموقع يُسِر الداعي إلى ربه بطلبِ أهم ما ينقيه ويجعله أهلا لهذا القرب: " رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي"

وفي حال الدعاء فإن الرسالة تسير في اتجاهين:

الأول- اتجاه الدعوة في مساره الأفقي الطبيعي من الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى البشرية؛ يعلمها بلاغة الدعاء، في استعمال خاص للغة، يتجاوز الاحتفال القريب بجماليات البناء والتعبير والأداء، إلى آفاق أسمى يهتم فيها بالغاية من وجود الإنسان في الأرض- يهتم بالعبادة، وتوصيل منهج السماء إلى البشر، والدعاء أصل العبادة وجوهرها. ومهمة النبي، صلى الله عليه وسلم، تجعل المتلقي وتعليمه في مقدمة أولويات الكلام عنده، فهو رسول الله، وهو مكلف بتوصيل رسالة الله إلى البشر، وهو يقوم بهذا العمل برعاية إلهية؛ فما ينطق عن الهوى؛ إن هو إلا وحي يوحى؛ وهو في دعائه ربه، كذلك، مبلغ رسالة ربه، ولا ينطق عن الهوى، و" ليسَ شيءٌ أَكْرَمَ على اللَّهِ تعالى منَ الدُّعاءِ"[59] فليس هناك شيء في العبادات أفضل، عند الله سبحانه وتعالى من الدعاء؛ ففيه إظهار العجز والخضوع والفقر إلى الله، والاعتراف بقوة الله سبحانه؛ وهذا جوهر العبادة وروحها.

وأما الاتجاه الآخر، فهو اتجاه نحو السماء، ثناء وحمدا واستعانة وطلبا، في استعمال خاص للغة كذلك، مع تمام الخشوع والتذلل والإخبات للخالق جل وعلا؛ حرصا منه، صلى الله عليه وسلم، على الناس، وطلبا لرحمتهم، وهو في كل هذا لا ينفك يعلم أمته، كذلك، كيفية التوجه بالدعاء إلى الله تبارك وتعالي، قاضي الحاجات ومجيب الدعوات؛ وإلا فإنه قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.[60]

فهو في الحالين، رسول الله ومبلغ عنه، ومعلم أمته الخير؛ وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، علمها هذا الدعاء " اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ تَقْضِيهِ لِي خَيْرًا"[61]

دعاء من لفظ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، علمه أمنا عائشة، رضي الله عنها، لتدعو به، بل علمنا إياه لندعو به، رحمة بنا وحرصا علينا؛ يردده الداعي بشعور القرب والوصول والمحبة، وكأنه مصطفى تجري الفصاحة في لسانه، ويصير قلبه باتساع الدنيا: " اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله، عاجله وآجله ما علمت منه، وما لم أعلم" ثم يتحول وكأنه يتوسل إلى الله تعالى بأفعال رسوله، صلى الله عليه وسلم، وقد توسل بكلامه " اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم، وأعوذ بك من شر ما عاذ منه عبدك

[59] أخرجه الترمذي، رقم: 3370؛ وابن ماجة، رقم: 3829
[60] صحيح البخاري، رقم: 4836 " قَامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فقِيلَ له: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، قالَ: أفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا"
[61] مسنده أحمد، رقم: 24498، وسنن ابن ماجة، رقم: 3846

ونبيك" ويعود مرة أخرى يرتقى رقيا بعيدا متقمصا شخص نبيه الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، ليسأل الله الجنة أفصح سؤال وأعلاه، ويعوذ به من النار ببلاغة نبوية رفيعة، لا يمكن الوصول إليها إلا أن يأذن بها الحبيب، صلى الله عليه وسلم، بتعليمه إيانا أن نقول بقوله: " اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قولٍ أو عملٍ، وأسألك أن تجعل كل قضاءٍ تقضيه لي خيرا" ونهتدي به في دعائه، متوجهين إلى الله تعالى به معلنين اتباع الرسول، صلى الله عليه وسلم، اتباعا تاما كاملا يؤول إلى محبة الله تعالى، طمعا فيما عنده، وكأننا من فرط الاتباع توحدنا برسوله، صلى الله عليه وسلم، وصار لسانه لساننا، ورجاؤه من ربه رجاءنا، وكل محابه محابنا.

ويغلب أن يأتي الدعاء في دفقات جملية موجزة ومكتملة، وتامة المعنى، حتى إن كل جملة منها يمكن تستقل بنفسها، دعاء منفردا بطلبه الخاص، فتبدو في ظاهرها وكأنها متفرقة، لكنه ظاهر فحسب ومن تحته يكمن تماسك شديد، ففي قوله، صلى الله عليه وسلم، من حديث أبي الأزهر الأنماري: " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَخْسِئْ شَيْطَانِي، وَفُكَّ رِهَانِي، وَثَقِّلْ مِيزَانِي، وَاجْعَلْنِي فِي النَّدِيِّ الأَعْلَى"[62]

ربما يبدو أن كل جملة وحدها، لكنها في العمق، وبقليل من التأمل، متماسكة، يأخذ بعضها برقاب بعض؛ ففي نص الدعاء موجَز معجِز لما نشعر أنه ختام لحياة مثالية، لمن أراد أن يكون على منهج الحق تبارك وتعالى، فيبدأ العبد[63] بطلب المغفرة لذنوبه المعوقة عن سلوك الطريق، تنقية لحاله وتطهيرا لنفسه، حتى يفرّغ قلبه لعلة وجوده من عبادة ربه، لكن هناك عدوا يقف له بالمرصاد، يريد له الشر كله، ويريد إفساد نواياه الحسنة في علاقته بربه، فهو يُتبع الطلبَ الأول بطلب ثان أن يُخسئ الله شيطانه، دفعا وإبعادا مع ذلة وصغار؛ ثم يفك رهانه طلبا ثالثا؛ فيتفرغ قلبه لما عزم عليه؛ فإنه بزوال كيد الشيطان يسلم من الوقوع في الخطأ، وبفك الرهان تنحط عنه أثقال الذنوب التي تبطئ سيره في الطريق إلى الله، ثم يأتي تأكيد هذا المعنى، فحين يتحرر المرء من كل هذا ينطلق حرا يعبد الله حق عبادته، فيأتي الطلب الأكبر والأمنية الأعظم لكل مؤمن؛ أن يثقّل الله ميزانه، طلبا رابعا، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾ والنتيجة من ذلك، الطلب الخامس، الترقي إلى أن يكون في الندي الأعلى.

فالطلب عزيز ونفيس، أن يثقل الله ميزانه، وأن يجعله في الندي الأعلى؛ ويكون هذا بغفران الذنب، وتثقيل الميزان ولا يكون شيء منهما، ولا يدوم إلا بإخساء الشيطان، وإلا بفك الرهان لينطلق في الطريق بحرية ونشاط، غير ملتفت لعداوة شيطان، ولا إلى قيد رهان.

9- من إشاريات الدعاء النبوي

إن الأسئلة المطروحة في حالة الدعاء، تدور حول المتكلم والمخاطب وطبيعة الرسالة والسياق الذي قيلت فيه، فالحركة فيه تكون بين وظائف ثلاث: انفعالية، وإفهامية، ومرجعية، وهي تحيل إلى المرسل والمرسل إليه والرسالة؛ نموذج بوهلر للغة؛ وهو التجريد الأول الذي انبنى عليه تصور جاكبسون لنظريته في التواصل، التي ضمت ثلاثة عوامل أخرى لتصير ستة، هي: المرسِل والمرسَل إليه والرسالة، والسَّنن والمرجع والقناة.[64]

والمتكلم هو مصدر الخطاب ومنتجه، وهو يشكل المركز الذي يدور حوله الخطاب، ولا شك "تختلف القيود المنطقية والمنهجية المتعلقة بالمرسل حسب وضعه التخاطبي، وطبيعة خطابه المرسل

---

[62] صحيح أبي داود، رقم: 5054

[63] لعل هذا من نوع الدعاء التعليمي، الذي يعلمنا فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كيفية الدعاء؛ وإلا فإنه، صلى الله عليه وسلم، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

[64] رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي، ومبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1988م، ص: 30

إليه"[65] ما طبيعته، وشخصيته، وفكره، ومعتقده... ما علاقته بالمخاطب، وما المعارف المشتركة بينهما، وما مدى قربه منه أو بعده عنه، وماذا يريد منه... وما المعنى الذي يقصده ويريد توصيله، لهذا فليس بغريب أن يمثل ضمير المتكلم مركز المقام الإشاري في التداولية.

ومن الطبيعي، في حالة دعاء المسألة، أن يكون المتكلم هو الموجود أساسا في الخطاب، وأن تهيمن ضمائره على النص؛ فهو الذي يتقدم بالطلب عن نفسه، مفصحا عن حاجاته، وعن مشاعره، وهو الذي يريد أن يكون موجودا بذاته وصفاته، مع المبالغة في إظهار صفات الضعف البشري الذي يحتاج دائما إلى المعونة في مواجهة الحياة وما فيها من شر ومن خير؛ في الشر استعاذة منه، وفي الخير استعانة على قضائه.

هذا بينما نجد العكس في أدعية الثناء، التي يهيمن عليها المخاطَب، حيث الخطاب كله، في الأغلب، يكون موجها إليه، وفيه تتجلى كل مظاهر القوة والقدرة التي تهيمن على كل شيء وتتحكم في كل شيء تذليلا وتيسيرا للعباد. وهو الذي يكمل عملية التواصل بتوجه المتكلم إليه بدعائه بكل ما يريد، مراعيا مكانته وقدرته. وهو هنا الذات الإلهية، الله الذي يعلم كل شيء، ومن خلال هذا العلم تكون إجابة الدعاء بما يصلح الداعي، وبما فيه خيره في الدنيا والآخرة؛ وهنا تتحدد لغة الخطاب الدعائي من خلال العلاقة بين الداعي والمدعو.

والداعي لا يدعو غائبا، بل يدعو حاضرا حضورا كاملا معه؛ فالخطاب في الدعاء يتشكل بين المتكلم والمخاطب الحاضر بدلالات الضمائر الكائنة في نص الدعاء الذي يمتلئ بمشاعر كثيرة يحملها المتكلم في كلمات الدعاء متوجها بها إلى المخاطب، ونرى حركة الضمائر في سيد الاستغفار: " اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا علَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي؛ فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ"[66]

المخاطب هنا حاضر حضورا حقيقيا في الخطاب؛ حاضر بضمائره: أنت، ظاهرا ومستترا، وكاف الخطاب؛ وهو حاضر كذلك حضورا كاملا، في وجدان المتكلم؛ يناجيه بقلب حاضر، لائذا به وملتجئا إليه ومستقويا به، وملتصقا به بضمير الوصل " أنت ربي- خلقتني..." في إطار من التعظيم والتبجيل، والشهادة له بالربوبية، خلقا وإيجادا، وتربية وإمدادا، وكذلك الإقرار له بالألوهية والوحدانية وطلاقة القدرة؛ إطار عام، يضم عناصر الموقف الكلامي، ويمنح الكلام المعنى الذي يقصده المتكلم متوجها به إلى المدعو، سبحانه وتعالى، ثناء عليه، في مطلع الدعاء، استعطافا له.

ومن بعد ذلك تأتي العناصر المكملة (عهدك- وعدك- صنعت- نعمتك- ذنبي) ويأتي معها التحول الحيي من الثناء إلى المسألة، مع إعلان التمسك بالعهد إقامة عليه، والوعد تصديقا به، قدر الجهد والاستطاعة، إقرارا بالعجز وتقديما للعذر، فإن العبد ضعيف، وأعماله مما يلحقه الشرور، رغم كل ما أسبغ عليه ربه من النعم، لكنه ضعيف يقر بضعفه ومذنب يعترف بذنبه، ويعترف بإثمه ومعصيته؛ ومن ثم نعود إلى الإطار الأول، مرة أخرى، وإلى تتمة البداية، ثناء على الله بتمام الربوبية، فأنت وحدك الغفور، وليس غيرك من يغفر الذنب ويأخذ بالذنب؛ فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ آل عمران.

ضمير المخاطب، كما نرى في هذا الدعاء وفي غيره، حاضر بقوة، فالدعاء كله له، ومتوجه به إليه، وهو في كل صوره يحيل على المدعو، سبحانه وتعالى، في دلالة على علاقة خاصة بين المتكلم

---

[65] الطاهر بومزبر، التواصل اللساني والشعرية مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2007م، ص: 24 – 25

[66] صحيح البخاري، رقم: 6306

الداعي، في ضعفه وحاجته، والمخاطب المدعو في قدرته المطلقة وحدبه على الداعي. معينات تعين هوية المتكلم، الداعي، وتعين حضوره ووجوده سياقيا ومرجعيا في عملية التلفظ والتواصل؛ ففي قوله "أنت ربي"، اقتراب اللفظ الدال على المتكلم من اللفظ الدال على المخاطب حتى الالتصاق الكامل الذي يستمر: ربي- خلقتني- طلبا للأمان والطمأنينة واستمدادا للقوة من قرب القوي، ثم ينفصل لتحقيق العبودية؛ وأنا عبدك، وأنا على عهدك، ثم يطغى الجانب الذاتي "استطعت- صنعت" فهو مختار لا جبر عليه، والفعل عنده على قدر وسعه، وهو لا يصل إلى مرتبة بعيدة من القيام على الوعد، ففي عمله تقصير.

والمتكلم حاضر هو الآخر، يقاسم المخاطب الهيمنة على الخطاب بضمائره المختلفة: أنا، ظاهرا ومستترا، والياء، والتاء؛ ولعل الدعاء هو ذلك النوع من الكلام الذي يستوعب طغيان ضمير المتكلم فيه، واستحواذه عليه. وهناك علامات تدل على عاطفة الداعي وانفعالاته وتحمل شكواه، علامات يمكن أن نسميها موجهات الخطاب، حيث تسمح للمتكلم بالتعبير عن أحاسيسه وعواطفه الوجدانية؛ فالداعي في حالته الخاصة بما يحمله انفراده من توزع، وتشتت، واضطراب، وقلق وحزن وشك ورغبة في الخلاص يحققها ما يكون من علاقة أنا الداعي بأنت المدعو في الدعاء، يبث المدعو كل وجداناته، من مشاعر، وثناءات، واستغفارات، وسؤالات، واستعاذات... والمتلقي يحمد له ذلك، ويحب أن يسمع صوته؛ و" مَن لَم يَسْأَلِ اللهَ يغضَبْ علَيهِ"[67] وجاء في شعب الإيمان عن الأوزاعي قال: " أفضل الدعاء: الإلحاح على الله عز وجل والتضرع إليه" و" يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي"[68] فمن أدب الدعاء ملازمة الطلب والإلحاح فيه، وعدم اليأس من الإجابة.

وأما المكان والزمان في الدعاء، فكلاهما كوني لا نستطيع تحديده، لكن ثم إشارات في النص تدل على وجود مكان ما: مكان "خلقتني" فيه يا رب؛ مكان صنعتُ فيه أعمالا اعتورتها الشرور؛ مكان أنعمت فيه علي، مكان شاهد على ذنبي الذي أسألك أن تغفره لي... وإشارات تدل على وجود زمان ما: زمان "خلقتني" فيه وقد مضى؛ وزمان حاضر أتمسك فيه "بعهدك ووعدك"، و"أعوذ بك" فيه من شر ما صنعت؛ زمان "أبوء" لك فيه بنعمتك على، و"أبوء لك" فيه بذنبي؛ زمان "لا يغفر الذنوب" فيه إلا أنت، في امتداد طبيعي إلى المستقبل، الذي يرجو له أن يكون طاهرا نقيا.

والضمائر بوصفها أسماء تدل على أسماء أخرى، فدورها مهم في بنية السرد، في انسجامه واتساقه، فهي روابط تجمع بين أجزاء النص للوصول إلى المعنى الذي يقصده منتج النص، ويعرف فان دايك الاتساق بأنه: " العلاقات أو الأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى ومن هذه الأدوات المرجعية."[69] وهو بهذا يشير إلى عناصر الإحالة الداخلية، أو الأدوات التي تحقق الاتساق على المستوى الداخلي للنص، ويشير كذلك إلى عناصر الإحالة الخارجية التي ترتبط بالمقام الذي أنتج فيه النص.[70] وهنا ضمائر المتكلم الداعي تدل على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، أو على الداعي المطلق، باعتبار النبي، صلى الله عليه وسلم، هو المعلم أمته الدعاء؛ وهو إنما دعا ليعلمنا. وضمائر المخاطب تدل على متلقي الخطاب، المدعو سبحانه وتعالى.

وبهذا يكتمل الدعاء، حدثا تواصليا بين العبد وربه؛ مترابطا متسقا، متماسكا منسجما، محدد القصد برجاء التغيير والإصلاح والتطهر؛ ويكون مقبولا من المتلقي، حيث لا اعتداء فيه ولا تجاوز.

---

[67] صحيح الترمذي، رقم: 3373؛ وأحمد، رقم: 9719

[68] صحيح البخاري، رقم: 6340

[69] فان دايك، النص والسياق، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق المغرب، 200، ص: 137

[70] انظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000م، ص: 96

10- أنماط الدعاء

في دعاء المسألة، وعلى نحو ما مر بنا، يظهر العبد ضعفه وافتقاره وشديد حاجته إلى معونة ربه القوي القادر القاهر؛ وكلما أوغل العبد في باب ذل العبودية أكثر، كلما كانت الإجابة أقرب، كما في دعاء الهم، ففيه من العبودية والتأكيد عليها وعلى افتقارها، وعلى شمول ذلك العبد وأحواله " اللهم إني عبدُك، وابنُ عبدِك، وابنُ أمتِك، ناصيتي بيدِك، ماضٍ فيّ حكمُك، عدلٌ فيّ قضاؤُك، أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك، سميتَ به نفسَك، أو علمته أحدًا من خلقِك، أو أنزلتَه في كتابِك، أو استأثرت به في علمِ الغيبِ عندك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجَلاءَ حُزني، وذهابَ همي، إلا أذهب اللهُ همَّه وغمَّه وأبدله مكانه فرجًا"[71]- فيه ما جعل النبي، صلى الله عليه وسلم، يؤكد أن على من سمعها أن يتعلمها؛ إذ فيها باب من أبواب الفرج ينفتح بقولها " قيل: يا رسولَ اللهِ، ألا نتعلَّمُها؟ فقال بلى، ينبغي لمن سمعَها أن يتعلَّمَها"[72]

وقد يضمر العبد اعترافه بضعفه، اكتفاء بإظهار قوة الرب وقدرته: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ"[73]

أو يضمر ذكر قوة الرب مشيرا إليها في عظم حاجته، ومدى القدرة المتوقعة لتحقيقها: " اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لي دِيني الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ الَّتي فِيهَا معاشِي، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتي الَّتي فِيهَا معادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لي في كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لي مِن كُلِّ شَرٍّ"[74]

وقد يضمر العبد حاجته وسؤاله، لعلم الله بحاله، ويكثر هذا في أدعية الثناء؛ فكان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، عند الكرب: " لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ ورَبُّ الأَرْضِ، ورَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ"[75] فلا نجد طلبا واحدا في دعائه وهو، صلى الله عليه وسلم، في أشد الحاجة إلى سؤال ربه أن يكشف هذا الكرب، لكننا نجد الثناء فحسب؛ وكأنه لجوء إلى جناب الله، واطمئنان في جواره، وسكينة في معيته؛ فهو وحده القادر على كشف كل كرب، وتعطيل أسبابه، وإحالته في قلب الداعي بهجة وسرورا.

والتعظيم في الثناء أرجى لإجابة الدعاء؛ فقد سمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو وهو يقول: " اللَّهمَّ إِنِّي أسألُكَ بأنِّي أشهدُ أنَّكَ أنتَ اللَّهُ لا إلَهَ إلَّا أنتَ الأحدُ الصَّمدُ، الَّذي لم يلِدْ ولم يولَدْ ولم يَكُن لَهُ كفوًا أحدٌ... فقالَ: والَّذي نَفسي بيدِهِ لقد سألَ اللَّهَ باسمِهِ الأعظمِ الَّذي إذا دُعِيَ بِهِ أجابَ، وإذا سُئِلَ بِهِ أعطى"[76] وعن أنس أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا ورجل يصلي ثم دعا: " اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّ لَكَ الحمدُ لا إلَهَ إلَّا أنتَ المنَّانُ بديعُ السَّمواتِ والأرضِ يا ذا الجلالِ والإكرامِ يا حيُّ يا قيُّومُ؛ فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ: لقد دعا اللَّهَ باسمِهِ العظيمِ الَّذي إذا دُعيَ بِهِ أجابَ وإذا سئلَ بِهِ أعطى"[77]

وكلما زاد الثناء دل ذلك على عظم المطلوب وجلاله، ففي الدعاء: " اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ من سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِن عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذُ بكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كما أَثْنَيْتَ علَى نَفْسِكَ"[78] فالعبد هنا معترف بعجزه عن بلوغ ما يليق بربه من الثناء؛ فيوكل ذلك له سبحانه، المحيط بكل شيء، فيكون

---

[71] محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض، رقم: 199؛ ومسند أحمد، رقم: 3712

[72] السلسلة الصحيحة، رقم: 199؛ ومسند أحمد، رقم: 3712

[73] أخرجه مسلم في صحيحه، رقم: 2739

[74] صحيح مسلم، رقم: 2720

[75] رواه البخاري في صحيحه، رقم: 6346

[76] صحيح الترمذي، رقم: 3475

[77] صحيح أبي داود، رقم: 1495

[78] صحيح مسلم، رقم: 486

بذلك قد وضع الثناء في موضعه، ويكون الثناء بذلك في أعلى درجاته، ولعل هذا التفصيل يتناسب مع ما يطلبه في دعائه، فهو يعوذ من جليل بجليل، ويعوذ من صفاته جل وعلا بصفاته، وتلك مرتبة عظيمة ومهيبة.

وهذه الإضمارات التي سكت عنها المتكلم قصدا يكون لها أسبابها التي لا تظهر إلا في مستوى الإنجاز النطقي، وهي تعرف بأنها " محتويات ضمنية تداولية أي استنباطات مستخرجة من السياق من قبل المتلفظ المشارك بفضل استدلال عفوي، إن قليلا أو كثيرا، يعتمد على مبادئ تحكم النشاط الخطابي"[79]

11- خاتمة

ونخلص من تناولنا لأدعية الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى أن اللغة في نص الدعاء النبوي، في جدتها، وخصوصيتها تمثل سلطة لها القدرة على الفعل المادي المؤدي إلى التغيير؛ وأن الداعي يتغير بدعائه، ويغير العالم تغييرا فعليا، سواء عالمه الخاص أو العالم الذي يتصل به ويدور من حوله.

فالداعي حين يلهم الدعاء، ويتوجه به إلى ربه القدير الكريم، فهو موقن أن طلبه قد تحقق على وجه الفعل بشروط تحقُّقه؛ وهذا من إحسان الظن بالله، وتوقع الخير منه يقينا جازما بوعده تعالى ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾، وهو سبحانه عند ظن عبده به، فالهمُّ هم الدعاء فحسب، ومن ألهِم الدعاء لم يحرم الإجابة؛ فتشيع الطمأنينة في النفس والصلاح في البال والهدوء في القلب، فيتصرف الداعي انطلاقا من يقين الإجابة؛ وتأتي حركته بحسب هذا اليقين.

وحاول البحث أن يكشف عن عبقرية التواصل في أدعية الرسول، صلى الله عليه وسلم، في تجلياتها المختلفة، بدءا من تحديد شكل العلاقة بين المتكلم والمتلقي، ومرورا بكيفية استخدام اللغة في سياق خاص، عاطفي وفكري معا، وما تولد عن هذا الاستخدام من أشكال لسانية عبقرية لها سماتها القارة والمضطردة في كل الأدعية النبوية الشريفة، التي كما رأيناها تسير في اتجاهين: اتجاه إلى البشرية؛ يعلمها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بلاغة الدعاء، الذي هو أصل العبادة وجوهرها؛ واتجاه نحو السماء، ثناء على الله وحمدا له واستعانة وطلبا.

أهم التوصيات

ولعل أهم ما نوصي به في ختام بحثنا، أن نلتفت إلى قيمة هذا الفن الباذخ (فن الدعاء النبوي) وإلى جدارته بتوجه أنظار الباحثين إليه ليأخذ ما يستحق من دراسة وتدقيق، ووصف، وتحليل، وتفسير، ومقارنة، وتقويم، وبحث في النشأة، والأصول، والخصائص، وفي التحولات التي جرت عليه، وفي الأثر الذي تركه ممتدا... استعانة بكل هذا التطور الكبير في النظريات البلاغية الحديثة، للوصول فيه إلى نتائج ترقى لمستوى الثبات العلمي، وتليق بشرف الموضوع وقداسته.

---

[79] المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 119، وانظر: عز الدين الناجح، تداولية الضمني والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب، ط1، مركز النشر الجامعي، منوبة، تونس، 2015م، ص: 2

أهم مصادر البحث ومراجعه

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة المدني، القاهرة، ط3، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م

أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986م

صحراوي، مسعود، التداولية عند العلماء العرب، (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م

بوجادي، خليفة، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، الجزائر، ط 2، 2012م

نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2011م

سويرتي، محمد، اللغة ودلالاتها، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، مجلد 28، عدد 3، مارس، 2000م

بوجادي، خليفة، التفكير اللغوي التداولي عند العرب: مصادره ومجالاته، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف ٢، الجزائر، المجلد ٩، العدد ١٦، أكتوبر ٢٠١٠م

المتوكل، أحمد، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط2، 2010م

ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ)، معرفة أنواع علم الحديث، تحقيق: عبد اللطيف الهميم، وماهر ياسين الفحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (المتوفى: 463هـ)، الكفاية في علم الرواية، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، تحقيق: أبي عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني

السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد (ت ٩٠٢هـ)، فتح المغيث شرح ألفية الحديث، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1403هـ

ابن ماجه؛ محمد بن يزيد الربعي القزويني، أبو عبد الله، ابن ماجة، صحيح سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1417هـ، 1997م

الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري (ت ١٤٢٠هـ) صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، ط3، 1408هـ، 1988م

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، مكتبة الرياض الحديثة، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف

الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، بيروت

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، ط2، 1420هـ، 1999م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون

الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (ت ٣٨٨هـ)، شأن الدعاء، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، ط1، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢م

الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق (ت ٣١١هـ)، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت، 1379ه

مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، ط2، 1972م

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، الفتاوى الكبرى، دار المعرفة، بيروت، قدم له: حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م

فيركلف، نورمان، اللغة والسلطة، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1, 2016م

فوكو، ميشيل، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، 1986م

دايك، فان، علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، 2001م

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي شمس الدين (ت ٧٥١هـ)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: زكريا علي يوسف

أوستن، جون، نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م

روبول، آن، وموشلر، جاك، التداولية اليوم، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت، 2003م

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1357ه

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني المروزي، مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة، مصر، د. ت

ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي (ت ٧٩٥هـ)، روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، جمع وترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ط1، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م

المناوي، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، 1422هـ، 2001م

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت ١٣٧٦هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1421هـ، 2000م

البوطي، محمد سعيد رمضان: شرح الحكم العطائية، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2003م

البخاري، محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1407ه، 1987م

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي شمس الدين (ت ٧٥١هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1393هـ، 1973م، تحقيق: محمد حامد الفقي

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي شمس الدين (ت ٧٥١هـ)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: محمد بن علي بن ريحان، 2016م

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط2، 1404ه، 1983م

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي شمس الدين (ت ٧٥١هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط14، 1407هـ، 1986م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط

المناوي، عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ

الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر (ت ١٣٥٦هـ)، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م

الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، دار صعب- بيروت، تحقيق: فوزي عطوي

السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، الروض الأنف، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1421هـ، 2000م

ياكبسون، رومان، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي، ومبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1988م

بومزبر، الطاهر، التواصل اللساني والشعرية مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2007م

الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000م

الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض

الناجح، عز الدين، تداولية الضمني والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب، ط1، مركز النشر الجامعي، منوبة، تونس، 2015م

القاري، علي بن سلطان محمد، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م